١ – على هامش الدفاع عن الشرق الأوسط

للدكتور عمر حليق

يخيل إلى أن أكثرنا يميل إلى بحث المسائل الدولية بعقلية قانونية . وأصالة الرأى فى معالجة السياسة الدولية تقتضى عدم التقيد بالنظرة القانونية فى تحليل حاضر أو مستقبل مشكلة من المشاكل الدولية . فالقانون الدولى نظام فكرى مرن مطاط يتحمل ألف تفسير وتفسير وألف مخرج ومخرج . والقانون الدولى فلسفة سياسية جوهرها الغموض وعمادها الدبلوماسية المرنة، وأبرز دعائمها اجتهاد لبق ذخيرته عناصر متشبعة من التحليل الدقيق للعوامل السياسية والاقتصادية والفكرية الطارئة، والتيارات الهادئة أو العاصفة التى تعترى حاضر قضية من قضايا الساعة ، والأهواء والنزعات وخفايا الأمور التى تكتنف هذه التيارات وتوجهها إلى هدف معين . وكل هذه الحقائق على قسط كبير من التعقيد والتشابك يقصر جوهر القانون الدولى ودساتيره المدونة عن تنفيذه وشرحه وتطبيق حرفية ذلك القانون عليه .

ولذلك فإن من غير الصواب أن نعالج المسائل الدولية على ضوء القانون الدولى وحده ، بل علينا أن نذهب أبعد من ذلك ونؤكد مع كثير من المراقبين للسياسة الدولية بأن الحصافة تقتضى أن وضع القانون الدولى فى زاوية بعيدة من مائدة البحث ، حتى إذا انتهينا من تحليل مسألة من المسائل الدولية على ضوء السياسة العملية والتيارات المعقدة المتشابكة (الاقتصادية والعسكرية والعاطفية والتاريخية) التى تكتنفها ، جلبنا القانون الدولى (أو بالأحرى هذا التراث من النماذج والسوابق والشروع والتعليقات التى تؤلف مايسمى القانون الدولى) وطلينا الصبغة النهائية لاجتهادنا فى السياسة العملية بطلاء قانونى قشرته حساسة مطاطة تفسح المجال للكر والفكر وللتعديل والتنقيح

ومثل هذه الحصافة توفر لصناع السياسة وللمعقبين على السلوك السياسى مرونة يستطيعون معها أن يقبلوا على معالجة حدث من حوادث الساعة فى عقل حذر واجتهاد فطن لا يضره أن يرفض أو أن يساوم على منفعة عاجلة فى سبيل نصر مرتقب ، أوأن يقبل مايبدو أنه قبول نهائى ، بينما هو يضمر هدفا هو المصلحة الجوهرية الآجلة للمسؤولية التى يتولاها صناع السياسة بالنيابة عن الأمة التى انتدبوا لتسيير شؤونها وخدمة مصالحها العامة

وقد يقرأ بعضنا فى ثنايا هذه السطور دعوة إلى الخداع وضرب من الغش ولكن الخديعة والغش أن تكتم عن الناس الحقائق . والحقائق فى السلوك السياسى تؤكد أن جوهر هذا السلوك صراع حاد قد يكون طابعه الصدق مرة والمراوغة مرة أخرى، واللباقة آنا والتهديد والوعيد آونة أخرى ، ومثل هذا الصراع يفترض الخديعة والغش فإذا اعتصم فريق بالصدق وحسن النية والمثالية المجردة وهو عالم بأن الفريق الآخر يتسلح بنير الصدق والمثالية والنية الصادقة فالفريق الأول يخدع نفسه ويضر بالأمانة القومية التى وكلته الأمة بالدفاع عنها وبصيانتها عن عبث العابثين

والدبلوماسية (وهى تعريف لهذا الاجتهاد الذى يحاول به صناع السياسة أن يصونوا الأمانة القومية التى وكلهم الشعب بها) جزء لا يتجزأ من سياسة السلم والحرب . والحد بين السلم والحرب خطر نظرى لا وجود له إلا فى مخيلة الناس . وقد قال حكماء العرب الأقدمون « الحرب خدعة » فإذا فسرنا هذه الحكمة تفسيرا صحيحا فإن لنا أن نعتبر أن « السياسة خدعة » كذلك ، والعبرة فى الحكم والأمثال أن تتجاوز التمة العقلية وأن تطبق على جوهر السلوك الإنسانى

* * *

وبعد فإن موضوع البحث هو مسألة (الدفاع عن الشرق الأوسط) وهى مسألة لها وضعية فريدة فوق أنها قضية خطيرة — فريدة لأنها مكتنفة بتيارات وعوامل على غاية من التعقد والتشابك، وخطيرة لأنها تمس صميم الأمانة القومية التى يهتم بها كل مواطن عربى ويحمل لواء الدفاع عنها قادة الرأى وأولو الأمر من صناع السياسة فى بلدان العرب. وعلى ذلك فإن الحديث عن مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط هو الحديث أبرز مايعترض حاضر السياسة العربية من أحداث طارئة لا تقتصر على الأوضاع الداخلية للدول

العربية فحسب ؛ بل تتصل اتصالا مباشرا بمستقبل الكيان العربي بأسره كمجموعة إقليمية وكدول منفردة ، كما تمس مستقبل هذا الشعب اليهودي الذي يكمن في عقر دارنا ومستقبل العلاقات التي تربط دول الجامعة العربية بالعالم الخارجي — في الشرق والغرب

* * *

والحديث عن الدفاع عن الشرق الأوسط يختلف باختلاف الجهة التي يصدر عنها الحديث، فالعرب تنظر إليه نظرة خاصة ، وتركيا تنظر إليه نظرة أخرى، وللبريطانيين فيه اجتهاد منفرد، وللأمريكان رأي خاص ، وللفرنسيين كذلك تفسير معين ، وموقف إسرائيل منه يختلف عن هؤلاء جميعا

ولكن المحافل العامة إجمالا حين تتناول مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط تفكر في أمور معينة تشترك فيها جميع الأوساط المعنية بالأمر

هذه الأمور هي : —

(١) — المركز الاستراتيجي للشرق العربي في خطط الدفاع عن الميدان الأوروبي — كلا المعسكرين الروسي والغربي ، وهذه الاستراتيجية تشمل قناة السويس والمطارات الجوية الصالحة لخطط حلفاء الغرب وما قد يفكر فيه الروس من خطط عسكرية مماثلة

(٢) — الثروة البترولية في هذا الشرق وأهميتها لعصب الجهاز الحربي لأي من المعسكرين المتطاحنين

(٣) — كون الشرق العربي نقطة القفز إلى القارة الإفريقية التي لها في مستقبل الاقتصاد الأوروبي والأمريكي مكانة بارزة

(٤) — أهمية الشواطىء الشرقية للجزيرة العربية وخليج العجم في الخطط البحرية لأساطيل الحلفاء في المحيط الهندي وفي الرغبة القديمة الكامنة في روسيا للوصول إلى منافذ مائية إلى هذه البحار الآسيوية وإلى البحر الأبيض المتوسط

وقد كثر الحديث عن هذه الأمور — أو عن بعضها — لدرجة أصبحت معالجتها من قبيل الكلام المعاد ، وأصبح تحليل أوضاعها من قبيل الابتذال في الاجتهاد الفكري

ولكن الواقع أن معالجة الناس لهذه الأمور — وفي الشرق العربي خاصة — كانت ولا تزال مشوبة بطابع السطحية والنظرة الركنية التي لا ترى الحقائق إلا من جنب واحد ، وهذا شيء طبيعي مبعثه العوامل القومية العنيفة التي تتفاعل في تفكير العرب هذه الأيام ؛ وقصور الصحافة العربية وألسنة الرأي العام عن الأسباب في معالجة الشؤون الدولية عامة والناحية العربية في الشؤون الدولية على وجه الخصوص — معالجة دقيقة مسهبة

وكل مايطمع كاتب هذه السطور لتسجيله هنا هو جمع أكبر قسط مستطاع من الآراء والتعليقات والتصريحات وما تنطوي عليه سياسة بعض الدول (المعنية بشؤون الشرق الأوسط) من مادة فكرية خاصة بموضوع الدفاع عن الشرق الأوسط ، وتنسيق هذه المادة بحيث تعين الباحث في هذا الموضوع على تكوين فكرة شاملة عنه تكون ذخيرة نافعة للذين يهمهم التدقيق في مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط على ضوء المصلحة الجوهرية للحكومات والشعوب العربية ؛ وعلى ضوء البرامج التي وضعها كلا المعسكرين المتخاصمين — السوفيتي والغربي — لاكتساب الشرق الأوسط إلى الحظيرة

وإن من الطبيعي أن يتسرب إلى معالجة هذا الموضوع الآراء الشخصية التي يحملها كاتب هذه السطور ، فيها تعمد الكاتب التجرد في تحليله لمسألة من المسائل فلا مفر له من أن يبث في ثنايا السطور أطرافا من تفكيره الخاص

والعذر الصحيح الذي يبرر لكاتب هذه السطور إقدامه على دراسة مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط كونه قد شغل بهذا الموضوع وتتبعه بدقة في مراحله العديدة ، وحاول أن يلم بخفاياه وظواهره، وأن يجمع أكبر عدد ممكن من الوثائق، وأن يزن مسألة الدفاع عن الشرق الأوسط بميزان التحليل المقارن لمسائل الدفاع عن مناطق جغرافية أخرى كالحلف الأطلنطي والجيش الأوروبي وميثاق الدفاع عن الباسفيكي والتحالف الروسي — الصيني في الشرق الأقصى ومكانة الشرق الأوسط في كلا المعسكرين السوفيتي والغربي

وعلى ضوء هذا التمهيد فلنشرع في استعراض هذا الموضوع في شيء من الإطالة

(الكلام صلة) نيويورك عمر عليوي